عقل
العويط

ألفرد بصبوص "الرجل الثاني" أول

الموهبة غابة نحت أيضاً

عن ألفرد بصبوص الذي توفي قبل أسبوع (1924 - الأول من كانون الثاني 2006)، وكان "الرجل الثاني" في معبد البصابصة الراشاني النحتي، حجراً وخشباً ومواد معدنية صلبة، الى جانب رائد الحداثة النحتية، شقيقه ميشال، وشقيقه الآخر، يوسف. هنا مقال، في هذا المقام، يصف معنى الكتلة والحجم في الفضاء، حين تكون عملاً فطرياً خالص الموهبة، ودور ألفرد بصبوص التأريخي - كشخص ثان - في تطور اشتغال العلاقة بين هذه الفطرة الموهوبة واستكمال دوزناتها وتحدياتها الاختبارية في حركة الحداثة النحتية اللبنانية. هذا الرجل الثاني في ثلاثية آل بصبوص، يصير أيضاً رجلاً أول.

في الأساس، لم يكن ألفرد بصبوص نحّاتاً، إنما كان محض شقيق، أي محض وسيط شكلاني، بصري، بين كينونة الأرض وكينونة السماء. هو لم يكن يخربط هذه ولا يعيد صوغ تلك، إنما كان يصنع نوعاً من الوشائج المرئية بين جسدين، كانت العين البريئة تعتقد، حتى اللحظة الأخيرة، انهما جغرافيتان منفصلتان، أو تعتقد - لفرط الإيغال في البراءة أيضاً - أنهما جغرافيتان موصولتان، في حين أنهما لم تكونا على هذه الحال من الهيولى الكاملة أو من القطيعة الفظة.

ليس من شيء أدعى الى هذا الوصف التوسيطي، لأحوال هذا النحّات الراحل، إلا فطرة الإقامة في جوهر هاتين الكينونتين، وفي الفيزياء البصرية التي تحتضنهما، وفي التباس العلاقة بينهما، وتعقّدها، وغموضها، بل وخصوصاً في بساطتها الكلية، داخل هذه الفيزياء، على ملمس من الأرض وعلى مرمى من السماء. وهذا بالذات ما كانه ألفرد بصبوص.

الفطرة في هذا المعنى، هي الشكل الأصفى، أي أنها المعرفة الجاهلة الأولى التي تقود الى المعرفة الواعية، الناجمة عنها. كل بحث شكلاني يختبره الإزميل، ويتحقق في ما بعد، على مستوى الشكل، إن هو سوى احتيال وإعادة توليف للتناغمات المفترضة. هذا البحث المتحصل لاحقاً، والمتجسد في كينونة شكلانية، هو اختبار لقدرة الفطرة على الإتيان بأشكالها الضائعة، وعلى صوغ الأحجام التي تهيّىء للفضاء أن يتآخى معها، وكأنها كانت مقيمة فيه، مخترقة إياه، منذ الأصل الشكلاني البصري الذي لم يكن ظاهراً للعيان.

بإزميل هذه الموهبة، رسم ألفرد بصبوص الإنسان، المرأة خصوصاً، الحب، الخصوبة، الثنائيات المتقابلة أو المندمجة، الانحناءات، المسنّنات، التجاويف، المقببات، والكتل والأحجام المالسات الناتئات الخشنات المتضادات المنسجمات، على طريقة الأحوال والتأملات والاختبارات الإنسانية، في وقائعها وحلمياتها، من أول الواقع مروراً بالتعبير والتشخيص والتشكيل البحت، وصولاً الى التجريدات وتحولاتها.

كانت تلك من أعمال الفطرة كموهبة غريزة. ثم صارت أعلى درجات الموهبة الاختبارية. عبثاً يُسأل الموهوب عن أسبابه. عبثاً نبحث له عن أسباب. فالفطرة لا تستطيع أن تظل محجوبة عن اتخاذ الشكل العيني التي تتطلع اليه، ولا تستطيع ان تظل شاردة في عالم الهيولى، وغير قابلة للتشكل. هي تنتظر، لكن الانتظار ليس مقيماً في عالم مغيّب، وإنما يقيم مبدئياً تحت المرئي، وراء الشكل الغيمي، أي في ما يلي الغيم عندما يتبدد.

هذه الغريزة هي التي تعرف معنى أن يكون المرء موهوباً، وهي التي تقود الإزميل، هنا، الى المواضع التي يتوجب على الأشكال الزائدة أن تتخلى عنها، لتكون مندرجة في منطقة الوساطة بين الفضاء والحجم. في ما بعد، أي في المراحل التي تدخل موجبات الاختبار البصري المدرّب على شروط التناغمات، ومعنى الناعم المالس والمنبسط، وتضاداته في الخشونة والاستنفار النافر والناتىء، او المجوّف، تصير الغريزة وموهبتها موضوعاً نحتياً بامتياز، ويصير الوسيط نحّاتاً.

أن يصير الوسيط نحّاتاً، يعني أن يعرف العلاقة بين الحجم والفراغ. الفراغ حين يكون هواء، أو حين يكون انتظاراً لكتلة تتكىء على النقصان الذي فيه، لكن من دون أن يفسد ذلك للود الأصلي قضية. وأيضاً الحجم، حين يكون تأصيلاً للفراغ وفضائه، وحين يكون تزويجاً لكائنين لا يستطيعان إلا أن يتزاوجا. وعليه، فقد كان ألفرد بصبوص من هذا النوع من الوسطاء، الفطريين، الموهوبين، الممنوحين نعمة معرفة النهم الذي يتمثل في شبق الحاجات الجسدية الأرضية، وفي شغفها، لاختراق شيء، يشبه دخول الجنس في الجنس الآخر، من خلال تكوين الأشكال الحسنى لهذا الدخول، وللإقامة البصرية، الكتلوية، الحجمية، النفسية فيه. وهي إقامة تتسع لكل صنوف التأويل الحسي، التجريدي، التعبيري، والتشخيصي، وفي آن واحد.

في هذا المعنى بالذات، لم يكن ألفرد بصبوص نحّاتاً. كان وسيطاً. لكن هذا التوسيط لم يكن علاقة البتة، في الأساس، بالمفاهيم النحتية النظرية ولا بالفلسفات أو الأديان ولا بالأفكار الباردة والمجردة. إنه توسيط الشكل الذي يقف في الفراغ ليمنحه معنى أو ليضفي عليه نكهة مؤنسنة تضع حداً للوحشة البصرية العميمة. وقد يحلو للناقد التشكيلي أن يسمّي هذه الوساطة بأسماء شتى. أن يقول مثلاً إنها تبحث عن الاختبار الذي يؤسس للزواج البصري بين الحجم والفضاء. هذا تفسير طبيعي معهود وضروري. لكن الوساطة، في حال الغريزة الموهوبة، هي نفسها الشكل الأصفى. أما النحت فليس سوى احتيال حجمي - إضافي - على هذا الشكل الأصفى.

في موضوع ألفرد بصبوص، كان شقيقه ميشال بصبوص هو الغريزة الموهوبة الأولى، مصحوبة، في الآن نفسه، بالأشكال التي تجرّد نفسها، لتعبّر عن طبع الغريزة الموهوبة حين تصير أجساداً، وحين تشاء أن تصالح بصرياً القطيعة الوهمية المفترضة بين الأرض والسماء. والأحرى أن أسمّي تلك، مصالحة بصرية بين الفضاء وأحجامه، حين يتخلى الانقطاع الجنسي بينهما عن القطيعة المشار اليها.

لم يكن نحت ألفرد بصبوص سوى استكمال اختباري مدوزن لعمل الفطرة. هذا لم يكن تكليفاً محدوداً أو قليل الشأن. إنه كان إضافة نوعية. وإنه فعل أراد لنفسه، إضافة الى موهبة الفطرة، أن يكون جوهرياً، أي ان يواصل عملية النباهة التي في الطبيعة نفسها، إذ هي تستولد أشكالها بنفسها، فترفعها احجاماً في الفضاء الفارغ، وقد تجوّفها، أو تزاوج بينها، او تجعلها ملساء وخشنة، أو نافرة، أو غائرة، على ثنائيات، أو على استفراد واحديّ بالهواء. وهذه هي الاحتمالات التي تنشد الجوهر الجمالي في العمل النحتي، أكان كينونة نصبية ضخمة أم أقل من ذلك بكثير.

تفكّر.

تأليف.

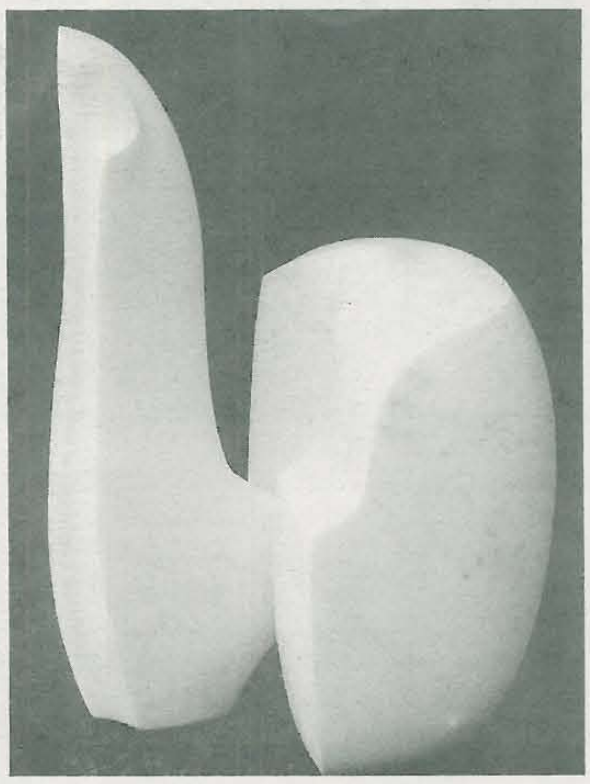

وصال.